

الاستمرار في الزمن ، ولما كان الاسم قد اكتسب مرونته من هذا الاستمرار فاصبح قادرا على ان يرتبط بالزمن في مختلف حالاته الحقوا صيغة المضارع به وأجروها مجراه في الاعراب لاشتراكها معه في الاستمرار الزمني بدلالتها على الحال والاستقبال .

نستطيع اذن القول بان الاستمرار في الزمن هو الاساس الذي بنيت عليه صيغة المضارع وان هذه الصيغة تنظر فقط الى ناحية الاستمرار في الزمن لا الى الجهة فيه ، وكذلك نستطيع القول بان الانتطاع في الزمن هو الاساس الذي بنيت عليه صيغة الماضي غير منظور فيه الى الجهة ايضا .

وهذا يعنى ان العرب لم يقسموا الزمن من حيث الجهة الى ماض وحاضر ومستقبل وانما نظروا اليه من حيث الصيرورة فقسموه الى منقطع ومستمر واختاروا للزمن المنقطع صيغة ساكنة جابدة هي ما نسميه صيغة الفعل الماضى وهي صيغة تدل على الزمن المنقطع في اى جهة كان ماضيا او حاضرا او مستقبلا ، ولما كان انتطاع الزمن بالمضى اكثر وادوم غلبت هذه الصيغة على الماضى ، وكذلك لما كان استمرار الزمن يغلب ان يكون في الحاضر المستقبلى او المستقبل غلبت هذه الصيغة على الحاضر المستقبلى والمستقبل ، وقد روعى نفس اختيار الصيغة التي تدل على الزمن المستمر ان تكون صيغة مرفعة متحركة بالاعراب حتى تتلاءم مع صورة الزمن المستمر .

وللتدليل على ذلك ننظر اولا الى صيغة الزمن المنقطع وهي التي تسمى صيغة الماضي من ناحية الاستعمال فنجد انها لاتدل ابدا الا على الانتطاع بصرف النظر عن الجهة ، يقول الفند الزمانى :

صفحننا عن بنى دهل

وقلنا القوم اخوان .

عنى الايام ان يرجموا

ن قوما كالذى كانوا

فلما صرح الشمر

فامسى وهو عريان

ولم يبق سوى العدوا

ن فناههم كمدانوا

مشيننا مشينة الليث

غدا! والليث غضبان (13)

فصفحننا ، وقلنا ، وصرح ، ودنا ، ومشيننا ،

هي افعال حدثت في زمن مضى منظور اليها من ناحية

انتطاع الزمن بها .

وقوله تعالى « اقتربت الساعة وانشق القمر » التمر: 1

« اقتربت للناس حسابهم » الانبياء : 1 « آتى

ابن الله فلا تستعجلوه » النحل : 1 « اذا جاء نصر

الله والفتح » النصر : 1 « انا فتحنا لك فتحا مبينا »

الفتح : 1 - فاقتربت ، وانشق ، واقتربت ، واتى ،

وجاء ، وفتحنا هي افعال سوف تحدث في زمن مقبل ،

منظور اليها من ناحية انتطاع الزمن بها فهي مستحدث

في اسرع مما يتصور وتحقق حدوثها مؤكدا كتأكد حدوث

الشيء الذي ينتطع به الزمن في الماضى .

وهناك امثلة في القرآن توضع فيها صيغة الزمن

المستمر والزمن المنقطع جنباً الى جنب مع اتصاد

الجهة مما يؤكد ان الاستمرار والانتطاع هو الهدف من

ايراد هذه الصيغ يقول الله تعالى « ويوم ينفخ في

الصور فنفزع من في السموات ومن في الارض » (14)

فكلا الفعلين سوف يحدث في جهة واحدة هي

جهة المستقبل ، ولكن احدهما وهو ينفخ اخذ صيغة

المضارع ، والثاني وهو فنفزع اخذ صيغة الماضى ،

ولا يمكن ان يكون لهذه التفرقة من سبب او دلالة الا اذا

كان منظورا اليها من ناحية الزمن ، فنظر الى النفخ

من ناحية استتالة الصوت في الزمن للتركيز على تأثيره

الرهيب وهو الفزع الذي ينتاب البشر فجأة فور النفخ

في الصور ، فاذا نظر الى الزمن من ناحية الانتطاع

فقط جاءت الصيغة في نفس الموقف في كلا الفعلين في

صورة الماضى يقول تعالى « ونفخ في الصور فصعق

من في السموات ومن في الارض » (15)

ويتضح ذلك المعنى جليا في قوله تعالى « ولقد

اتينا موسى الكتاب وطمينا من بعده بالرسول ، واتينا

(13) حسنة ج 1 ص 54

(14) سورة النمل : 87

(15) سورة الزمر : 68

استمر من ناحية الزمن فجاء التعبير عن بلفظ تصييون،
ونقبل ، ونحكم .

وفي قول قطري بن الفجاءة :

فلقد ارانى للرماح دريلة

من عن يميني مرة وامامسى

حتى خضبت بما تحدر من دسى

أكتاف سرجى او عنان لجامى

ثم انصرفت وقد اصيبت ولم اصب

جذع البصيرة فارح الاقدام(18)

فهذه الاحداث كلها وقعت في الماضى ، وعبر
عنا نظر فيه الى انقطاع الزمن بصيغة الماضى مثل
خضبت تحدر ، انصرفت ، اصيبت وما نظر فيه الى
استمرار الزمن عبر عنه بصيغة المضارع مثل ارانى ،
وامصب . ونقطة التركيز على الاستمرار في كلا الحدين
لا تخفى ، وذلك لان استمرار تعرضه المستمر للرماح،
واستمرار سلامته مع ذلك دليل واضح على شجاعته
وجده وشدة فتكه .

يقول النحويون ان لما ولم تنقلان الفعل
الحاضر الى الماضى ، فلذلك تقول لم يخرج زيد
فتدخلها على لفظ المضارع والمعنى معنى الماضى
الا ترى انك تقول لم يتم زيد امسولو كان المعنى كاللفظ
لم يجر هذا كما لم يجر تصوير زيد امس وكذلك لما
بنزلة لم في الجزم قال الله تعالى (ولما يطم الله
الذين جاهدوا منكم) فجزمت كما تجزم لم (19) والسؤال
هنا هو : لماذا تنقل لما ولم الفعل الحاضر الى
الماضى اذا لم يكن هناك هدف من وراء هذا النقل ؟
ولم لا يعبر عن الماضى المنفى بصيغة الماضى المنفى
فنعقول ما خرج زيد، وما قام زيد امسوما علم الله الذين
جاهدوا منكم وهى صيغ اكثر سهولة وادق تعبيراً
عن الماضى ؟

ان هناك مطلباً آخر وراء الماضى في الزمن
وهو الاستمرار فيه وهو الذى كان يقصده العرب حين
يضعون صيغة المضارع مكان صيغة الماضى فهم
لا يقصدون من (لم يخرج زيد ، ولم يتم زيد امس)

عيسى ابن مريم البنات ويهناه بروح القدس ، افلكما
جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ، ففريقا
كذبتم وفريقا تقتلون . البقرة 87 ، ...
فلا ائصال : آتينا ، وقتينا ، وايدنا ،
وجاءكم ، وتهوى ، واستكبرتم ، وكذبتم ، وتقتلون وكلها
من ناحية الجهة وقد وقعت في الماضى وجاء التعبير
فيها كلها بصيغة الماضى ما عدا اثنين جاءا بصيغة
المضارع هما : تهوى ، وتقتلون . فاذا قلنا ان تقتلون
جاءت لما تتطلبه الفاصلة القرآنية من انسجام صوتي،
وان التصد هو قتلتم كما ذهب ابراهيم انيس (16)
فلماذا عدل عن هوت نفوسكم الى تهوى ، الا ان يكون
التصد هو ابراز الاستمرار الزمنى في هذين الفعلين،
خصوصاً وانه يخاطب اليهود المعاصرين للرسول
والذين لم يشتركوا طعاماً في هذه الاعمال كما نظر الى
الانقطاع في بقية الاعمال فكأنه يقول لهم علمتم كذا وكذا
وعلمنا كذا وكذا ولكن اهو اعمكم تغلبت
عليكم ، فميرة آباتكم ما تزال تسير معكم .
ونسى قولهم كذبتم وتقتلون نجد انه
لم يرق بينهما في الانقطاع والاستمرار فجعل زمن
القتل مستمراً ليركز على بشاعة هذا الجرم الذى
ارتكبهوه ، وانه اذا كان التكذيب ينصور وقومه من
الناس ، فان قتل الانبياء جريمة بشعة لا تتصور الا
من قوم وصل بهم تحكم الهوى وتحجر القلب الى اقصى
المدى واستمر ذلك منهم كانه جزء من طبيعتهم .

وبالنسبة لصيغة المضارع نجد الامر على
نفس الصورة التى وجدناها بالنسبة لصيغة الماضى ،
يبدل المضارع على الزمن المستمر ايا كانت الجهة .

فاذا كان الفعل وقع واستمر فترة عبر عنه
بصيغة المضارع . فما وقع واستمر في الماضى وعبر
عنه بصيغة المضارع قول الشيفر الحارثى :

فلسنا كمن كاتم تصييون سلة

فنقبل ضيما او فحكم قاضيا (17)

فالفعل من ناحية الجهة وقع في الماضى
ولذلك جاء التعبير عن الجهة بلفظ كاتم ولكن الفعل

(18) حياصة ج 1 ص 31

(19) شرح المنفل لابن يعوش ج 2 ص 41

(16) من اسرار اللغة انيس 159

(17) حياصة ج 1 ص 27

وكما يطرد ذلك في القرآن الكريم يطرد ايضا في الشعر القديم .

يقول امرؤ القيس :

راى ارنبا فانقض يهوي امامه
اليها وجلاها بطرف ملتق
نظت له صوب ولا تجهدنه
فيدرك من اعلى التطاء فتزلق
فاد برن كالجزع المنفصل بينه
بجيد الغلام ذي القيص المطوق
فادركهن ثانيا من عناته
كفيت العشى الاقهب المتودق (21)

فهذه كلها احداث جرت في الماضى ، ولكن التعبير عنها جاء بصيغة الزمن المنقطع اى الماضى ، والزمن المستمر اى المضارع معا فكلبات : راى ، وانتقض ، وجلا ، وقلت ، وادبر ، وادرك ، افعال وردت بصيغة الماضى وكلمات يهوى ، تجهد ، يدرك وردت بصيغة المضارع مراعاة لانقطاع الزمن او استمراره في الفعل نفسه .

وكذلك قوله :

خرجت بها تمشى تجر وراعا
على اثرنا بنيل مرط مرحل (22)

وقوله :

تمد وتبدي عن اسيل وتقى
بناظرة من وحش وجرة مفل (23)

وقوله :

اصاح ترى برقا اريك وميضه
كلخ اليدى في حبى مضلل
يضى سناه او مصا بيع راهب
امال السليط بالذبال المفل (24)

وقوله :

ومر على الفتان من نفياته
فانزل منه العصم من كل منزل

مجرد الاعلام عن وقوع الفعل في الماضى وانما التأكيد على ان (عدم الخروج وعدم القيام) قد استمر اى الماضى ، ويتضح ذلك بجلاء من صيغة الآية التى اوردها ابن يعشى وهى (ولما يعلم الله الذين جاهنوا منكم) ، فالآية تتكلم عن امتحان المؤمنين ، واختبار اسلامهم لربهم فقد ابتلاهم بالهزيمة في موقعة احد مقتل من قتل وجرح من جرح ، فحزن المسلمون فنزلت هذه الايات لتؤكد ان الايمان ليس دعوى بغير بينة ، وان الله لن يعطى صاحب الدعوى اجره حتى يؤكد ما بصدقه ويعمله فقال لهم « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ، ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليحس الله الذين آمنوا ويحس الكافرين . ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » . (20) فهى كلها افعال منظور فيها الى الانقطاع والاستمرار بصرف النظر عن الجهة فهو ينههم عن الوهن والحزن في اى وقت . ويتضح ذلك بجلاء في قوله تعالى ان يمسسكم وهمس وكل منهما قد حدث في الماضى فقد مس القوم قرح في بدر من عام مضى وقد مسكم البلاء في احد وما تزال آثاره قائمة بكم ، وذلك ليعلم الله علما مؤكدا صحة ايمان الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء يظنون احياء في جنته . وحين يتكلم عن الحقائق المقررة يقول لا يحب الظالمين ، فهو لم يجبه في الماضى ، ولم يجبه في اى وقت ، ثم يقول لهم ان هذا البلاء انما كان الهدف من ورائه تثبيت ايمان المؤمنين وتقويته حتى يستمر قويا صلبا ، وليهلك في الوقت نفسه الكافرين ، فهو لن يسكت عنهم ، وهزيتكم لن تستمر ، ومهما ظن الكافرون بانفسهم السلامة فمصيرهم هو الهلاك . ثم يقول لهم ام حسبتم فيعمل عن صيغة المضارع الى صيغة الماضى ليشير الى انقطاع حساباتهم بوقوع البلاء وليقول لهم ان سر انقطاع حساباتهم وخيبة املهم انما يكمن في كونهم استسوا هذا الحساب على اساس غير سليم ، فلما اراد ان يؤكد ضرورة استمرار العمل الموجب لجنته قال : « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » ، فهو اذن بلاء مستمر واختبار لا ينقطع لمجرد دعاوى الايمان ، حتى يوجب اجرها بالصدق ، بذلك قضت سنته تعالى .

(22) المعلقة

(23) المعلقة

(24) المعلقة

(20) سورة آل عمران : 142

(21) الديوان ص 173 ، ص 174

وتجاء لم يترك بها جذع نخلة
ولا أطبا الا مشيدا بجندل (25)

فكلمات خرج ، وأمال ، ومر وانزل ، وردت
بصيفة الماضي وكلمات مثل ترى ، وأرى ويضئ ،
ويترك ، وردت بصيفة المضارع مع انها كلها احداث
وقعت في الماضي وذلك مراعاة لانقطاع الزمن
واستمراره .

والامثلة على ذلك كثيرة جدا في الشعر القديم نكتفي
منها بما ذكرناه. وكذلك اذا كان الفعل قد وقع وما زال
مستمرا فانه يعبر عنه بصيغة المضارع؛ يقول جابر
ابن الشعلب الطائي :

ومن يفتقر في قومه يحمده الفنى
وان كان فيهم واسط العم مخو لا
ويزري بعقل المرء قلة ماله
وان كان اسرى من رجال واحولا
ويقول طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطنى
عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة
وما تنقص الايام والدهر ينفد (26)
وتوله :

أرى الموت اعداد النفوس ولا أرى
بعيدا غدا ما اقرب اليوم من غد (27)
وتول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يمش
ثماتين حولا لا ابالك يسام (28)
رايت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطيء يعمر فيهم
ومن لم يصانع في امور كثيرة
يضرس بآتياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الثبتم يشتم

ومن يك ذا فضل فيخل بفضله
على قومه يستغن عنه وينسم
ومن يوف لا يذم ومن يهد قلبه
الى مطئنت البر لا يتجمجم
ومن هاب أسباب المنايا ينلته
وان يرق أسباب السماء يسلم
ومن يجعل المعروف في غير اهله
يكن حمده فما عليه ويندم
ومن يعص اطراف الزجاج فاته
يطبع الموالي ركبت كل لهزم
ومن لم يلد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يفتخر ي حسب عدوا صديقه
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم (29)

في هذه الابيات نجد تفرقة واضحة - نيبا
يسمى في اللغة الانجليزية بالحقائق - تبين ما يستمر
في الزمن ، وما ينقطع استمراره فيه ، فالانفعال التي
تعبّر عن حقائق ثابتة لا تتغير بتغير الأزمان يأتي
التعبير عنها دائما بصيغة المضارع ، وكذلك يستعمل
طرفة في التعبير عنها الفعل ارى ليؤكد طبيعة الاستمرار
فيها . وهو يرى ان الموت يعتام ويصطنى في كل وقت ،
وهو يرى ان العيش ينقص وينفد في كل وقت ، وان
الموت اعداد النفوس في كل وقت .

وكذلك يرى زهير ان من يعش ثماتين عامبا
يسام ، هذه حقيقة ثابتة ومستمرة ، وهو يرى ان
المنايا من تصب تمت ، ومن تخطيء يعمر فيهم. هذه
حقائق ثابتة ومستمرة ، وهو يرى ان من لا يصانع
يضرس ، ويوطأ ، ومن يجعل المعروف من دون
عرضه يفره ، ومن لا يتق الثبتم يشتم ، ومن يك ذا
فضل فيخل يستغن عنه وينسم . وكذلك من يوف لا
يندم ، ومن يهد لا يتجمجم ومن يجعل يكن ويندم ،
ومن يعمى يطبع ، ومن لم يلد يهدم ومن لا يظلم
يظلم ، ومن يفتخر ي حسب ومن لا يكرم لا يكرم .
فهذه كلها حقائق ثابتة ومستمرة جاء التعبير عنها
بصيغة المضارع المستمر ، ونلاحظ ان زهير يعدل
أحيانا عن صيغة المضارع الى الماضي حينما لا يقصد

(25) المعلقة

(26) المعلقة

(27) المعلقة

(28) المعلقة

(29) المعلقة

سأنصره ان كان للحق تابعاً
وان جار لم يكثر على التعطف (32)

فكلمات سأنصره وجار ، ويكثر انفعال سوف
تقع في المستقبل ومع ذلك وقع التعبير عنها بصيغتي
الماضي والمضارع مراعاة لانقطاع الزمن واستمراره،
فهو سينصره ولن يتوقف عن نصره ، وان جار. ولم
يركز الشاعر في هذا الفعل على استمرار الزمن لانه
يقصد الى مجرد وقوع الفعل وهو الجور ، ولذلك
استعمل فعلا يدل على مجرد وقوع الحدث ثم عاد
فركز على استمرار الزمن في المضارع المنفى بلم تأكيداً
على انه لن ينفك عن التعاطف معه وان جار .

ويقول النابغة :

فانك سوف تحلم او قاهسى

اذا ما شبت او شاب الغراب (33)

فكلمات تحلم او تنهى يتعلق وقوعها
واستمرارها في المستقبل بوقوع انفعال تسبقها
هي شبت وشاب ، ومع ان الانفعال كلها يفترض
وقوعها في جهة واحدة هي المستقبل الا ان الشاعر
نظر في بعضها الى استمرار الفعل فجاء بها بصيغة
المضارع وهي تحلم وتنهى ، بينما نظر في بعضها الى
مجرد الوقوع فقط وهي شبت وشاب فجاء بها بصيغة
الماضي ، وما يؤكد هذا الادعاء ويقويه ان الانفعال
التي جاء بها الشاعر بصيغة الماضي هي بطبيعتها
انفعال استمرارية لان الشيب اذا وقع لازم صاحبه
واستمر معه طول حياته ، ومع ذلك جاء الشاعر بهذا
الفعل شاب وشبت بصيغة الماضي لانه لا يريد ان
يؤكد استمرار الشيب بصاحبه وانما يشير الى مجرد
حدوثه فقط .

ومن ذلك قول زهير :

سيأتي آل حصن حيث كانوا

من الثلاث باتية ثناء (34)

فكلمتا سيأتي وكانوا فعلاً يتحدان في الجهة
وهي المستقبل ومع ذلك جاءت احدهما بصيغة
المضارع والثانية بصيغة الماضي .

الى تأكيد الاستمرار . كما جاء في قوله سئمت ، وهاب
وذلك لانه لم يقصد الى التركيز على استطالة زمن
السأم أو الهيبة ، وانما قصد الى بيان وقوعها فقط
بالنسبة اليه ، ولذلك حين اراد ان ينبه الى ملازمة السأم
عاد الى استعمال صيغة المضارع فقال بسام ، وكذلك
الحال في بقية انفعال المضارع التي تدل على حقائق
ثابتة مثل يجعل ، يفر ، يضرى ، يصانع يتق ،
يشتم ، .. الخ .

والامثلة على ذلك في الشعر القديم لا تحصى.
فاذا اريد التعبير عن حدث سيقع ويستمر
في المستقبل جاء التعبير عنه ايضا بصيغة المضارع ،
يقول عمر بن ماس :

فان كنت منى او تريدن صحبتى

فكونى له كالسمن ريت له الادم

وان كنت تهوين الفراق ظميتى

فكونى له كالذئب ضاعت له الغنم (30)

فنى تريدن وتهوين انفعال مستمع في الحال
ومتستمر في المستقبل جاء التعبير عنها بصيغة المضارع
مراعاة للاستمرار في الزمن .

ويقول طرفة في معلقته :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا

ويأتيك بالاخبار من لم تزود

ويأتيك بالاخبار من لم تبع له

نباتا ولم تضرب له حين موعد (31)

فكلمات ستبدي ، ويأتيك تشير الى انفعال
ستمع في المستقبل على سبيل الحتم بالنسبة لشخص
لا يثق في احتمال ذلك او في امكانه وهو المخاطب
بهذه الايات ايا كان .

وسيظل وقوعها محتما لانها من حقائق الحياة
التي اشرنا اليها فيما سبق - وان روعى فيها توجيه
الخطاب للمستقبل مراعاة لحال الشخص الذي لم
يجرب نوع هذه الاحداث بعد ، ويقول حاتم الطائي :

(30) حماسة 24/1

(31) معلقة

(32) الديوان ص 42

(33) مختار ص 120

(34) مختار ص 193

ومنه قول البثلم بن رباح بن ظلم المري :

ساكفيك جنبى وضمه ووساده
واقضب أن لم تعط بالحق اشجما (35)

فكلمات ساكفيك واقضب وتعط افعال روعى
فيها الاستمرار فغير عنها الشاعر بصيغة المضارع .

ومنه قول عنبرة :

سياتيكم عنى وان كتبت ناثيا
دخان الجندى دون بيتى منود (36)

فكلمات سياتيكم ، وكنت جاتا بصيغة المضارع
مراعاة للاستمرار .

ومنه قول زهير :

على رسلكم انا سنعدو وراكم
فتنعمكم اراحنا أو سنعدو (37)

فكلمات سنعدو ، وتنعمكم ، وسنعدو جاءت
بصيغة المضارع مراعاة للاستمرار وهكذا .

نفرج من ذلك بأن العرب قد وضعوا صيغة
للزمن في حالة تعلقه بالفعل منظورا اليه من ناحية
الانتطاع والاستمرار لا من ناحية الجهة من ماضى
وحاضر ومستقبل كما فعلت اللغات الآرية الأخرى ،
أى ان اللغة العربية لم تنظر الى الزمن نظرة منطقية
كما نظرت اليه هذه اللغات ، وإنما نظرت اليه نظرة
وجودية ، أى من ناحية الصورة التى يكون بها متعلقا
بالزمن مقطعا أو مستترا ، وقد شبه المستشرقون
الى هذه الحقيقة فقسّموا الحدث فى اللغات السابقة
ومنها العربية الى قسمين : حدث تام وقع وانتهى ،
وحدث ناقص لم يتم ولم ينته . ثم جعلوا تلك الصيغة
التي يسميها النحاة من العرب بالفعل الماضى خاصة
بالاحداث التي تمت وانتهى وقوعها وتلك الصيغة التي
نسميها بالمضارع للتعبير عن احداث لم ينته
وقوعها : (38) وقد جاء هذا التقسيم فى العربية اقرب
الى حقيقة علاقة الفعل بالزمن ، والى طبيعة الزمن
نفسه من التقسيم المنطقى من ناحية الجهة والذي
عرفته اللغات الآرية وذلك لان تقسيم الزمان من ناحية

الجهة الى ماضى وحاضر ومستقبل كما يقول بن حسون
« تقسيم فلسفى افتراضى يعتبر قياسيا لكمية تجرية
فى الرياضيات ، او الطبيعة او الفلسفة ولكنه من الناحية
الوجودية زمن لا وجود له على هذه الصورة لان
الزمان صيرورة ، وديمومة تبدأ من الماضى ، وتستمر
فى المستقبل دون ان تتوقف فى زمان اسمه الحاضر
لان الحاضر زمن لا يتصور وجوده الا اذا تصورنا
سكون الزمن عند لحظة منه تسمى الحاضر ، وقد
كان ذلك متصورا فى ظل الفلسفات الاغريقية القديمة
التي تصورت الزمن على انه امتداد يمكن ان تقطعه
لحظات سكون (39) » ان الزمن فى التصور الحديث
ليس لحظة تحل محل لحظة اخرى ، والا لما كان هناك
سوى الحاضر ولما كان هناك امتداد للماضى فى
الحاضر ولا تطور ولا ديمومة محددة بالسنات . ان
الديمومة هى التقدم المستمر للماضى الذي ينجر فى
المستقبل ويتضخم كلما تقدم . (40) لقد اصّر النحاة
على برفض فكرة الزمن على اساس انه امتداد هندسى
قابل للتقسيم ، فقسّموه الى ماضى وحال ومستقبل ،
على التصور العربى للزمان على انه صيرورة وحركة
مستمرة لا يمكن تصور الفعل فى علاقته به الا فى احدى
حالتين ، وهما اما انتطاع او استمرار بصرف النظر
عن الجهة ، ولقد تظن بعض المتكلمين الى ان الزمن
الحالى لا وجود له على الحقيقة ، ولكن وجهة نظرهم
ضاعت امام الرغبة العارمة عند جمهرة النحاة فى
التقسيم المنطقى للزمن .

يقول ابن يعيش « وقد أنكر بعض المتكلمين
فعل الحال ، وقال ان كان قد وجد فيكون ماضيا ، والا
فهو مستقبل وليس ثم ثالث » (41) .

يمكن القول بأن فكرة الزمن على هذه الصورة
فى اللغة العربية ارتقى بكثير من فكرة الزمن فى اللغات
الجرمانية واللاتينية ، والتي لم تنقطع الى حقيقة
الاستمرار فى الزمن الا فى عصور متأخرة جدا . يقول
« متدرّس » استعملت اللغات الجرمانية مثلا للتعبير
عن الزمن الاستمراري الذي لم يكن فيه ، اسم

(35) حماسة 106/1

(36) مختار ص 206

(37) مختار ص 204

(38) اسرار اللغة ، أنيس ص 154 .

(39) التطور الخالق 14/23

(40) نفس المصدر والصفحة

(41) الفصل 4/7

حقيقة الإيجاز وحدوده :

عرف ابو هلال العسكري الإيجاز بقولسه « الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة وما تجاوز مقدار الحاجة فيه فضل داخل في باب الهزل والخلل ، وهما من اعظم ادواء الكلام وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصنعة » وقد يعترض على هذا التعريف بأنه مدرسى ليس من اللازم أن يكون مطابقا لواقع الحال ، فحين يكون الإيجاز نتيجة لطبيعة تركيبية في العقليّة أو اللغة أو في كليهما معا كما سبق ان ذكرنا يكون الإيجاز مسرا فرضته الطبيعة ولا يكون توخيا للجودة في الكلام ويقتضى ذلك ان تتأكد للعرب دراية بإمكانيات اخرى في التعبير غير الإيجاز وان يكون ما عرف من ايجازهم وانبا بهذا الشرط : ونحن على اي حال لا نتمسك بهذا التعريف ابتداء لانا نريد ان نصل الى ذلك من خلال دراسة النصوص نفسها فلنسال اذن عن حد الإيجاز لا عن حقيقته أو معناه ، فما هو حد الإيجاز ؟

حد الإيجاز :

القصر — أى الاجمال — والحذف.

والتصر تقليل الالفاظ وتكثير المعانى ، مثل قوله تعالى «ولكم في القصاص حياة» ومنه المثل السائر في الشعر أو في كلام العرب ، كما هو في القرآن والحديث أيضا مثل قول طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالآخبار من لم تزود

ومثل قولهم : الصيف ضيعت اللبن ، وسبق السيف العذل .

ومثل قول الرسول عليه السلام « اياكم وخضراء الدمن ...

» فمعاني هذا الكلام — كما يقول العسكري أكثر من الفاظه ، وأذا اردت ان تعرف ذلك فحلها وابنها بناء آخر ، فانك تجدها تجيء في اضعاف هذه الالفاظ « (52) اما الحذف فهو حذف بعض أجزاء الجملة دون الإخلال بمعناها ، وذلك كأن تحذف المضاف

الفاعل مصحوبا بفعل الكون . فاننا نجد في الإلمانية العليا المتوسطة تراكيب مثل
seken sekench sint
كل أولئك الذين يروننى)
der arime heienich
البيت (673) أو (All die mich der riter
mit tem der leve van endist

الفارس .. الذى معه يسافر الاسد ..) (Wein)
بيت (2986) هذه الحاجة نفسها هى التى بعثت على نشوء التركيب الإنجليزي :

الذى شاع (I was going, I am going)
شيوعاً هائلا ، ويلاحظ في فرنسية القرن السادس عشر وجود محاولة لخلق استمراري من هذا القبيل بواسطة الفعل (être : كان) أو (aller : ذهب) ولكنه اندثر بعد ان حكم عليه (بالرب Malherbe وميناج Menge) بالاعدام

يقول « cette prison qui va vous renfermer »
ويقول لا فونتين :

Je m'en vais désaltérant (اطفئ ظمئى) (50)

هذا التصور العرى السليم للزمن ، وهذا الاختبار الدقيق للصنيع الذى يعبر عن علاقة الفعل به يكشف عن عدة مسائل اهمها ان فيها تأكيدا لما سبق ان ذكرناه من مرور هذه اللغة بفترة تطور حضارى طويل ، انه يؤكد تطورا مائلا في العقليّة العربية من ناحيتى الادراك وقوة الملاحظة ، وسنعرف في دراستنا للإيجاز الى أي مدى قد امتد هذا التصور، كما سندرس في بقية الأبحاث المقبلة كيف أصبح ادراك الزمن باعتباره صيرورة خلافة عملا أساسيا في تطورهم وتصورهم الاخلاقي والدينى والعلمى .

ب — فى الإيجاز :

الإيجاز فى العربية هو الخصيصة التى تتعلق بها شبهة الطبيعة التركيبية فى دراسات المستشرقين ومن تابعهم من الدارسين العرب . ونريد هنا ان نتعرف على حقيقة هذا الإيجاز ، واما اذا كان هو الاسلوب الوحيد الذى عرفته العربية ، وذلك من خلال نصوص من القرآن والحديث وكتب الأخبار التى تمثل الى ، جانب الشعر القديم (الجاهلى) مصادر العربية ، وبمدها نتكلم عن دلالة الإيجاز الفكرية .

(50) اللغة ، فندريس ترجمة الدواخلى ص 148/149

(51) كتاب الصناعتين للعسكري ص 172

(52) نفس المصدر ص 187

وتقيم المضاف إليه مقابله وتكمل الفعل له يقول الله تعالى « واسأل القرية » أي أهلها .

ومنها اتباع الفعل على شئين وهو لاحد هما ويضمر للاخر فعله ، وهو قوله تعالى « فاجمعوا امركم وشركاءكم ، معناه : واندموا شركاءكم ، ومنها ان يأتي الكلام على ان له جوابا فيحذف الجواب اختصارا لعلم المخاطب : لقوله عز وجل : « ولو ان قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى فله الامر جيبا » اراد لكاد هذا القرآن ، نحذف . وقد عد المسكوي أوجها كثيرة للحذف نكتفي منها بما ذكرناه (53)

يترك بعضا من اجزاء الجملة اختيارا بدليل انه لا يخل مع الحذف بشرط صحة الكلام مما يؤكد انه على وعى بمكان الحذف وانه لو شاء لاتي بالمحذوف في مكانه ، ولكنه عدل عنه التماسا للاجود من الكلام ، وذلك واضح في وجوه الحذف التي اوردها فلانعميد ما ذكرنا، فلنلق اذن نظرة على القرآن والحديث في ضوء هذا المفهوم .

1 - القرآن :

لا اريد ان اتمل ما يعرفه الجميع من الفارق بين اسلوبي مكة والمدينة في القرآن ، ومن ان الاسلوب المكي هو اسلوب الدعوة التي تلجا الى التأثير على الوجدان وان اسلوب المدينة يغلب عليه طابع التعليم والجدل وان السورة القصيرة ، والجملة القصيرة هي طابع القرآن المكي وان الجملة الطويلة والسورة الطويلة هي طابع القرآن المدني ذلك شيء يعرفه الجميع ولكن الذي احب ان اتبه عليه ان طابع الایجاز في الجملة القصيرة والسورة القصيرة هو طابع الایجاز بالحذف وليس بالاجمال ، فالجملة التي تقال للحكمة ، او للمثل الساخر لا تعثر عليها الا على النثرة على طول القسم المكي مثل « قتل الانسان ما اكفره » ومثل « بل الانسان على نفسه بصيرة » ومثل « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » بل لو استعرضنا القرآن كله استعراضا استقصائيا لما خرجنا منه باكثر من بضع عشرات من الجمل الجملة التي تطلق مثلا ساثرا ، واذا فالاسلوب الاساسي المستعمل من اساليب الایجاز هو اسلوب الایجاز بالحذف لا بالتصر ، وهذا الاسلوب ، كما قلنا لا علاقة له بالطبيعة التركيبية لان موضع الحذف معروف من القائل والمستمع ولو شاء احدهما لرد المحذوف الى مكانه وسنورد امثلة كهللة على اتصال الكلام - على شرط العرب - اتصلا تاما في هذا النوع من الاساليب وورود المعنى فيها مستقصى مستوفى بضرب من التتميل الخاص الذي يجعل الزمن جزءا من بنية الجملة ، او يجعل الكلمة المتروكة فيها بيلا عن الكلمة المذكورة .

وهنا نقف على اول دليل حاسم ضد شبهة الطبيعة التركيبية وذلك قبل ان نتجاوز بدراستنا الایجاز نفسه فقد رأينا ان الایجاز يشتمل على ضربين لا على ضرب واحد اولهما الایجمال وهو الذي يمكن ان تكون له صلة بالطبيعة التركيبية وهو التصر او الایجمال لانه يدل بالتقليل من الكلام على الكثير من المعنى دون ان يحذف شيء من بنية الجملة نفسها ، بمعنى ان الجملة هنا موجزة بحكم بنائها النحوي ودلالاتها المعنوية معا فقوله تعالى « لكم في القصص حياة » ، جملة تامة مكونة من مبتدأ وخبر وجار ومجرور لا يوجد فيها شيء ناقص من بنيتها الاساسية او من توابعها ومع ذلك فهي قابلة للتليل الى كثير من الجمل مثل : اذا قتل انسان آخر متممدا دون ان يكون لهذا القتل موجب يبرره وذلك بان لا يكون دفاعا مشروعاً عن النفس او في حرب معلنة من الامام الشرعي ، او تنفيذا لحد من حدود الاسلام باذن الامام فان قتل هذا القاتل اذا لم تقبل فيه الفدية ولم يعف عنه اولياء القاتل - ضرورة تستلزمها حماية المجتمع وضمان امته ..

ويمكن ان يقال في الایجمال على هذا الاساس ان الالفاظ استخدمت فيه كاعوية وان المعنى قد ركز فيه تركيزا شديدا ، ولم يفصل او يبسط وتديقال وذلك شيء نترك الاجابة عليه قليلا - ان هذا من نتيجة الطبيعة التركيبية التي لا تسمح لاصحابها ببسط الكلام وتفصيله على هذا الوجه .

اما الحذف فهو شيء آخر تماما ، لان الحذف لا يمكن ان يكون نتيجة عجز عن بسط الكلام فالنكتم

على ان ذلك لم يمنع حين يقتضى المقام السرد القصصى او تفصيل المعنى ان يعدل القرآن عن الحذف الى التفصيل ، بل ان دراسة القصة في القرآن تكشف عن ان القصة الواحدة ترد فيه في عدة مستويات مختلفة من الحذف والتفصيل فقد ترد القصة في جزء من آية ، وترد نفسها في آية كاملة ثم ترد مفصلة بعض التفصيل بل ثم ترد بتفصيل اكثر وهذا حسب حاجة الكلام ، وقصة يوسف مثال نمونجى على ان اللفظة العربية قادرة على السرد حين تريد السرد ، وقادرة على التفصيل حين تريد التفصيل ، فنحن نجد كثيرا من مشاهد القصة ترد بتفصيلها الدقيق ، ولما كنا لا نستطيع ان نقدم دراسة كاملة في هذا الموضوع فانا نكتفى هنا بأحد المشاهد من هذه القصة :

مشهد الغواية : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الابواب وقالت هيت لك . قال : معاذ الله ، انه ربي احسن مثواي انه لا يفلح الظالمون . »

ولقد همت به ، وهم بها ، لولا ان راي برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين .

واستبقنا الباب ، وقدت قميصه من دبر ، وألنيا سيدها لدى الباب قالت : ما جزاء من اراد بأهلك سوءا الا ان يسجن او عذاب اليم .

قال : هي راودتني عن نفسي .

وشهد شاهد من اهله ؛ ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما راي قميصه قد من دبر ، قال : انه من كيدكن ان كيدكن عظيم ، يوسف اعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين « يوسف 13/29 .

اما في حين يكون الامر امر حجاج او بيان ، او تشريع فان السرد والتفصيل يكون هو الاصل ولهذا طالت السور المبدئية حين اقتضت ظروف التعبير ذلك ، ونكتفى هنا بآيات الدين مثلا على اللفظة العلمية التثنيية التحليلية .

يقول تعالى « ياايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا ياب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق ، وليتق الله ربه ولا يبغض منه شيئا ، فان كان الذي عليه الحق سفيها او ضعيفا ، او لا يستطيع ان يمل هو ، فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احدهما فنذكر احدهما الاخرى ، ولا ياب الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تساموا ان تكتبوه صغيرا او كبيرا الى اجله ، ذلك اقتسط عند الله ، واقيم للشهادة ، وادنى الا ترتابوا ، الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها وأشهدوا اذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان فعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم . وان كنتم على سفر ، ولم تجدوا كتابا فرهان مقبوضة ، فان امن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن امانته ، وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم « البقرة 282 - 283 .

2 - الحديث :

يختلف اسلوب الحديث عن اسلوب القرآن ، وللعلماء حديث طويل مضطرب حول طبيعة هذا الاختلاف ومداه (54) والذي نتصوره في وجه هذا الاختلاف هنا هو ان القرآن نزل من عند الله معجزة لغوية وبلاغية يتحدى العرب ، ولذلك لم يكن هدفه متصور على الابانة والانساح ، وانما كان مهتدا الى الجمال النفسى باعتباره هدفا اساسيا تتحقق به المعجزة ويمتد به التأثير الوجدانى الى اقصى مداه ، ولا يعنى هذا ان القرآن قد اخل بشرط الابانة والانساح حين يكون التعليم هو الاصل كما هو الشأن في المسائل التشريعية ، اما الحديث فهو كلام الرسول نفسه لم يكن تحديا وانما هو يؤدي اساسا وظيفة التعليم ولذلك لم يكن الجمال الفنى هدفا اساسيا له ، وان كان ذلك لا يعنى انه اخل بشرط الجمال النفسى حين يكون الهدف الوصول بالتأثير الوجدانى الى اقصى مداه كما هو الشأن في المواعظ

(54) انظر اعجاز القرآن للباتلانى ص 194 وما بعدها واعجاز القرآن للرانعى ص 366 وما بعدها.

ولذا غلب على أسلوب الحديث السرد ، والترسل ، والتبسط كما غلب على أسلوب القرآن التشخيص والتصوير والحذف .. الخ .

أي: استعمال الأساليب الفنية ، وطابع السرد والترسل ، والتبسط هو أسلوب الجانب التشريعي من الحديث ، وهو يشكل الركن الأساسي منه ، فالمعاني هنا على قدر اللفاظ ، والالفاظ على قدر المعاني لأن الدقة هي الشرط الذي تستلزمه لغة التشريع والتعليم .

ونضرب لذلك مثلا ببعض احاديث التشريع :

عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذ الى اليمن قال « انك تأتي روما من اهل الكتاب فادعهم الى شهادة ألا اله الا الله وانى رسول الله فان هم اطاعوك لذلك فاعلمهم ان الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فان هم اطاعوك لذلك فاعلمهم ان الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم فتد على فقرائهم ، فان اطاعوك لذلك ، فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب » ، رواه الجماعة .

ويتخذ تعليم الرسول عليه السلام في الغالب ، صورة السؤال ، والجواب حتى اذا لم يكن هناك سؤال وجواب ؟ عن ابي بكر قال « خاطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر فقال : اتدرون أى يوم هذا ، قلنا : الله ورسوله اعلم ، فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال : ليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى ، قال : أى شهر هذا ؟ قلنا الله ورسوله اعلم ، فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه فقال : ليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى . قال : أى بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله اعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه . قال : ليست البلدة ؟ قلنا : بلى . قال : فان نساعكم وأموالكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا الى يوم تلقون ربكم ، الا هل بلغت ، قالوا : نعم ؟ قال : اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم وجوه بعض » رواه أحمد والبخارى . وثيقة الصلح مع قريش عام الحديبية تتضح لنا صورة اللغة التى كانت تكتب بها المعاهدات والتي كانت تستعملها قريش فى

معاهداتها ، واحلامها ، ومصالحاتها ، وهى من املاء الرسول عليه السلام وهى : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب بين الناس عشر سنين ، يامن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على انه من اتى محمدا من قريش من غير اذن وليه ، رده عليهم . ومن جاء قريشا من مع محمد لم يردوه عليه ، وان بيننا عيبة مكثوفة ، وانه لا اسلال ، ولا اغلال ، وانه من احب ان يدخل فى عهد محمد وعقده دخل فيه ، ومن احب ان يدخل فى عهد قريش وعقده دخل فيه . وانك ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وانه اذا كان عام قابل خرجنا عنك ، فدخلتها باصحابك ، فاقمت بها ثلاثا ، معك سلاح الراكب ، والسيوف فى القرب ، لا تدخلها بغيرها » ، ابن هشام 317/2 ، 318 .

ونضرب مثلا : للغة السرد القصصى فى قصتين من قصص الحديث النبوي هما قصة اصحاب الغار ، وقصة الابتلاء .

القصة الاولى « اصحاب الغار » :

روى البخاري ومسلم عن مالك بن صعصعة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينا ثلاثة نفر يمشون فأووا الى غار فى جبل فاتحطت على نم غارهم صخرة من الجبل فاتطبقت عليهم ، وقال بعضهم لبعض : انظروا اعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا بها لعل الله يفرجها عنكم ، فقال احدهم : اللهم انه كان لى واندان شيخان كبيران وامراتى ، ولى صببة صفار ارعى عليهم فاذا ارحت فوجدتهما قد ناما فحطبت كما كنت احلب ، فنجئت بالحلاب فمقت عند راسها اكره ان اوقظها من نومها واكره ان أسقى الصبية قبلها والصبية يتضاغون عند قدمي ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فان كنت تعلم انسى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فانرج لنا فرجة نرى منها السماء . ففرج الله منها فرجة فراوا منها السماء . وقال الآخر : اللهم انه كانت لى ابنة أحببتها كاشد ما يحب الرجال والنساء وطلبت اليها نفسها فابت حتى آتيتها بمائة دينار فتمت حتى جمعت مائة دينار فنجتها بها فلما وقعت بين رجلها قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم الا بحتة ، فمقت عنها - فان كنت تعلم انسى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فانرج لنا منها فرجة ففرج لهم وقال آخر :

اللهم انى كنت استلجرت اجرا بفرق اربز فلما قضى
 عمله قال : اعطنى حتى ، فعرضت عليه سرقة
 فرغب عنه ، فجاه فقال : اتق الله ولا نظلمنى
 حتى ، قلت : اذهب الى تلك البقر ورعاهما فخذها
 فقال : اتق الله ولا تستهزى به بسى ، فقلت : انى لا
 استهزى بك ، فخذ تلك البقر ورعاهما فخذها وذهب
 به ، فان كنت تعلم انسى نعلت ذلك ابتغاء وجهك ،
 فاترج لنا ما بقى ، فترج الله ما بقى .

القصة الثانية : «الابتلاء»

ان ثلاثة نفر من بنى اسرائيل ابرص واقترع
 واعى ، اراد الله ان يبتليهم فيبعث الله اليهم ملكا
 فانسى الابرص فقال : اى شىء احب اليك قال لون
 حسن وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى تذرني الناس
 قال : فسحبه فذهب ففره واعطى لونا حسنا وجلدا
 حسنا . قال فاي المال احب اليك ؟ قال الابل او قال
 البقر — شك اسحاق ، الا ان الابرص او الاقترع ،
 قال احدهما الابل وقال الاخر البقر — قال : فاعطى
 ناقة عشراء ، فقال : بارك الله لك فيها . قال : فانى
 الاقترع فقال : اى شىء احب اليك ؟ قال شعر حسن
 ويذهب عنى هذا الذى تذرني الناس ، قال فسحبه
 فذهب عنه ، واعطى شعرا حسنا قال : فاي المال
 احب اليك ؟ قال البقر . فاعطى بقرة حاملا ، فقال
 بارك الله لك فيها . قال : فانسى الاعمى فقال : اى
 شىء احب اليك ؟ قال ان يرد الله الى بصري فابصر
 به الناس ، فقال : فسحبه فرد الله اليه بصره قال :
 فاي المال احب اليك ؟ فقال : الغنم فاعطى شاة
 والدا فانجح هذان وولد هذا . قال : فكان لهذا واد
 من الابل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم
 ثم انه اتى الابرص فى صورته وهيته ، فقال : رجل
 مسكين قد تقطعت به الحبال فى سفري ، فلا بلاغ
 لى اليوم الا بالله ثم بك ، اسالك بالذى اعطاك اللون
 الحسن ، والجلد الحسن والمال ، يعيرا اتبلغ عليه
 فى سفري . فقال الحقوق كثيرة ، فقال له : كئسى
 اعرفك ألم تكن ابرص يقترك الناس ، فقيرا ، فاعطاك
 الله ، فقال : انما ورثت هذا المال كائرا عن كائرا .
 فقال : ان كنت كاذبا فصيرك الله الى ما كنت .

قال : واتسى الاقترع فى صورته ، فقال له مثل ما قال
 لهذا ، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا . فقال ان كنت
 كاذبا فصيرك الله الى ما كنت .

قال : واتسى الاعمى فى صورته وهيته فقال :
 رجل مسكين وابن سبيل انتقطعت به الحبال فى سفري
 فلا بلاغ لى اليوم الا بالله ثم بك ، اسالك بالذى رد عليك
 بصرك شاة اتبلغ بها فى سفري فقال كنت اعمى فرد
 الله بصري ، فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا
 اجهدك اليوم شيئا اخذته لله ، فقال : اسك مالك
 فانما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك وسخط على
 صاحبك (رواه البخاري ومسلم عن ابى هريرة ،
 رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)

لغة الاخبار :

هناك لغة اخرى غير لغة القرآن والحديث
 والشعر والمثل هى لغة الموسوعات الاخبارية
 والتاريخية ، لا ادري لماذا لم ينحصرها القائلون
 بالطبيعة التركيبية ، وهى لغة تقوم بحكم موضوعها
 على التفصيل لا على الاجاز ، لقد كانت هذه اللغة
 موجودة قبل الاسلام بطريق الرواية الشفهية ، فلما
 بدأ عصر التدوين تم عن طريقها تدوين تاريخ الاسلام
 والتاريخ السابق عليه سواء اكان تاريخ ادب وشعر
 او تاريخا اساسيا ، فقد استقدم معاوية عبيد بن ثرية
 الجهمى من صنعاء . فكتب له كتاب الملوك ، واخبار
 الماضين (55) كما دون بعض الصحابة كتابا فى السيرة
 منهم عروة بن الزبير بن العوام (— 92 هـ) وعنه اخذ
 ابن اسحاق والواقدي والطبري ، ومنهم ابان بن
 عثمان بن عفان (— 105 هـ) ووهب بن منبه الينسى
 (— 110 هـ) وشرجيل بن سعد (— 123 هـ) وابن
 شهاب الزهري (— 121 هـ) . وعاصم بن عمر بن
 قتادة (— 120 هـ) وعبد الله بن ابي بكر بن حزم
 (— 135 هـ) وكان هؤلاء الاربعة ممن عنوا باخبار
 المغازي وما يتصل بها (56).

ومنهم موسى بن عقبة المتوفى سنة 141 هـ ،
 ومعر بن راشد المتوفى 150 هـ ، ومحمد بن اسحاق
 المتوفى فى سنة 152 هـ .

وجاء بعد هؤلاء غيرهم منهم زياد التكتائي المتوفى سنة 183 هـ ، والوافدي صاحب المغازي المتوفى سنة 207 هـ ، ومحمد بن سعد المتوفى سنة 230 هـ ، وابن هشام المتوفى سنة 218 هـ (57) .

ولم تكن لغة الاخبار متصورة على رواية التاريخ السياسي فقط أو ذكر أيام العرب وانما كانت تشمل أيضا الاخبار الادبية والتخصص التي تقوم عليها الامثال ، والمناسبات التي ترتبط بها الاشعار ، وقد استمر التقليد العريسي القديم وهو تقليد الرواية الشفهية وهي التقليد المعتد حتى بعد عصر التدوين ، ولم يكن العلماء يطمنون لخبر الا اذا كان مرويا باسناده عن طريق الرواية ، وقد حاول علماء اللغة والادب ، وضع شروط للرواية واللغة والاخبار ، لضبط نقلها عن العرب الصرحاء ، وذلك على نسق شروط الجرح والتعديل التي وضعها علماء الحديث .

ولا يهينا هنا ان نناقش الاخبار نفسها تاريخية كانت أو أدبية، وانما الذي يهينا الاسلوب الذي رويت به هذه الاخبار في كتب التاريخ وكتب الادب . ونذكر هنا كنموذج لهذا الاسلوب في اخبار التاريخ رواية ابن اسحاق لخبر رضاعة الرسول عليه السلام . قال ابن اسحاق : وحدثني جهم بن ابي جهم مولى الحارث ابن حاطب الجهمي ، عن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب ، او عن حدثه عنه قال : كانت حليلة بنت ابي ذؤيب السعدية ، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ارضعته، تحدث: انها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتبس الرضعاء ، قالت : وذلك في سنة شهباء ، لم تبق لنا شيئا . قالت : فخرجت على اثنان لي قمراء في بياضها ككرة ، معنا شارف (تاقة مسنة) لنا ، والله ما تبض (ما ترشح) بقطرة ، وما نسام ليلنا اجمع من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، ما في ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج فخرجت على اثنائي تلك فلقد ادمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضمنا وتمخضا ، حتى قدمنا مكة تلتبس الرضعاء ، فما منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم

فتباه ، اذا قيل لها انه يقيم ، وذلك انا كنا نرجو المعروف من ابي الصبي ، فكنا نقول ، يقيم او ما عسى ان تصنع امه وجده ! فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معي الا اخذت رضيعها غيري ، فلما اجمعنا الاطلاق قلت لصاحبي : والله انسى لاكره ان ارجع من بين صواحيي ولم آخذ رضيعا والله لاذهبن الي ذلك اليتيم فلاخذه ، قال لا عليك ان تفعلي ، فغسى الله ان يجعل لنا فيه بركة . قالت فذهبت اليه فاخذته ، وما حلنسى على اخذه الا اني لم اجد فيه قالت : فلما اخذته ، رجعت به الي رحلي ، فلما وضعت في حجري اقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى وشرب معه اخوه حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي الي شارفنا تلك ، فاذا انها لحائل ، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ربا وشبعنا فبنتنا بخير ليلة قالت : يقول صاحبي حين اصبحتنا : تعلمي والله يا حليلة ، لقد اخذت نسمة مباركة : قالت : فقلت : والله اني لارجو ذلك قالت : ثم خرجنا وركبت انا نسي ، وحملته عليها معي فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء ومن حصرهم ، حتى ان صواحيي ليقطن لي : يا بنته ابي ذؤيب ويحك ! اربعي علينا ، اليست هذه اناك التي كنت خرجت عليها ؟ فاقول لهن : بلى والله انها هي ، فيقطن : والله ان لها لثاننا ... الخ (58)

ونموذج من اخبار الادب يروي المفضل الضبي قصة المثل العريسي (تلك بتلك) فيقول « وزعموا ان عمرو بن جدير بن سلمى بن جندل بن تهشل بن دارم ابن مالك ان حنظلة كانت عنده امرأة معجبة له جميلة وكان ابن عمه يزيد بن المنذر ابن سلمى بن جندل بها معجبا ، وان عمرا دخل ذات يوم بيته فرأى منه ومنها شيئا كرهه حتى خرج من البيت فأعرض عنه ثم طلق المرأة من الحياء منه نمك ابن جدير ما شاء الله لا يقدر يزيد بن المنذر على ان ينظر في وجهه من الحياء منه ولا يجالسه ، ثم ان الحى غير عليه وكان فيمن ركب عمرو بن جدير قلما لحق بالجبل ابتدره فوارس فطعنوه وصرعوه ثم تنازلوا عليه وراه يزيد بن المنذر فحبل عليهم فصرع بعضهم واخذ فرسه واستنفذه ،

ثم قال له اركب وانج فلما ركب قال يزيد (تلك بتالك)
نهل جزيتك فذهبت مثلا « (59)

ذلك أسلوب آخر من أساليب العربية كما
جاءت به النصوص التي رويت بنفس لغة عرب ما
قبل الإسلام ، وقبل ان يقال انها قد تأثرت بأي لغات
أو أفكار غيرت من طبيعتها وعدلت من أساليبها . وهو
أسلوب التعميل والتحليل الذي يقال انه من سمات
اللغات الآرية بحكم طبيعتها التحليلية ، وان اللغة
العربية قد حرمت منه بحكم طبيعتها التركيبية . وهو
الأسلوب الذي عرّفه البلاغيون ووضعوه تحت باب
(الاطناب) وقال اصحاب الاطناب : المنطق انما هو بيان
والبيان لا يكون الا بالاشماع ، والثناء لا يتسع الا
بالافتناع ، وفضل الكلام ابينه ، وأبينه أشده احاطة
بالمعنى ، ولا يحاط بالمعنى احاطة تامة الا
بالاستقصاء (60) والاستقصاء هو التحليل ، وقالوا
« البلاغة الاجاز في غير عجز ، والاطناب في غير
خطل» (61) .

ولنلق نظرة سريعة على النصوص التي
اوردناها لتمثيل هذا الأسلوب ، - لنعرف ان كانت
واقعية بشرط البسط والتحليل .

في مشهد الغواية ، وهو مشهد واحد مأخوذ من
قصة طويلة خصصت لها سورة طويلة من سور
القرآن هي سورة يوسف ، والتي تدور حول قصة
يوسف وتبدأ من طفولته الى القائه في الجب الى اخذه
الى بيت العزيز الى تعرضه لغواية امرأة العزيز ثم
القائه في السجن ، ثم خروجه منه امينا على بيت
المال ، ثم حضور اخوته وتعرفهم عليه ، في سلسلة
طويلة من الاحداث والمشاهد والازمنة والامكنة في بناء
فنى محكم ، كادق وأحكم ما تكون قصة في ادب اي
لغة عرفت القصة وبرعت فيها - نجد في هذا المشهد
واقعة الاغواء مبسطة بتفصيل دقيق ، فهو لم يختصر
لنا المشهد في جملة ، وانما فصله بدقائقه وخفاياه ،
وما دار فيه من شد وجذب وحديث حتى الفاظ المرادة
نفسها ... هيت لك .

وفي آيات الدين نجد ان جملة النداء تفتتح بيا
ايها الذين آمنوا ثم لا تختم الا بعد اكثر من صفحة

طويلة من صفحات القرآن ، في جملة واحدة طويلة
كاطول ما تكون الجمل تتخللها جمل قصيرة تسهم كلها
في تفصيل معنى واحد فقط هو (كتابة الدين) ، وليس
هنا مجال تفصيل الاساليب المتنوعة التي استعملها
القرآن في قصصه وجدله ، وعرضه آيات الله .. الخ
وهو وحده قاطع الدلالة في طاقته هذه اللغة وامكانياتها
التي لا تقف عند حد .

وفي نصوص الحديث نلاحظ غلبة السرد القصصى
واسلوب الحوار ، وتفصيل المعنى على الجانب
الاكبر من حديث الرسول عليه السلام على الرغم من
ان الرسول عليه السلام قد اوتى جوامع الكلم ، وهو
الأسلوب المحكم المركز الذي لم يستسهل الذين لم
يتعودوا الا على فهم الاسلوب المفصل الذي لم تعرف
لغاتهم غيره .

ففي خطبة يوم النحر نجد معلما يحرص اشد
الحرص على تحديد المعنى وبسطه وتفصيله
باسلوب الحوار فهو يريد ان يقول لهم (لقد حرمت
عليكم القتل والسرقة) هذه الجملة الموجزة قد بسطت
بسطا في حوار طويل يتجاوز عشرة اسطر ، وفي نص
الحديث يصاغ النص بدقة اسلوب المعاهدات الدولية
التي لا يترك فيها طرف للاخر فرصة واحدة يؤول فيها
النص لحسابه وقد اورد ابن هشام كيف رفض
سهيل بن عمرو ان يكتب في النص محمد رسول الله
لان في هذا اعترافا منهم بشيئته وهو ما يحاربونه عليه
وفي قصتي اصحاب الغار والابتلاء نجد نموذجين
لقصتين تصيرتين كاملتين بكل مقاييس القصة الحديثة
وبشروطها الفنية ، وفي دوران كل منهما على معنى
جزئى في حوار دقيق محكم تنتهى الى لحظة تنوير .

وفي رواية ابن اسحاق لخبر رضاعة الرسول
نجد عرضا قصصيا طويلا مسهبا لحادثة واحدة هي
حادثة (الرضاعة) .

وحتى الامثال التي يقول احمد امين انهم عرفوها
ولم يعرفوا القصة هذه الامثال لا تروى الا ومع كل
مثل قصة ، وسواء اكانت القصة صحيحة او مخترعة
فان دلالتها تعنى ان العرب عرفوا القصص بانواعها
واقعية ومخترعة ، وقد رويها هنا نموذجا لقصة

(59) امثال العرب ص 23

(60) كتاب الصناعتين ، للمسكري ص 190

(61) دلائل الاعجاز لعبد القاهر ص 111 ، 112